

القسم الأول

الغرب ووحدة البحر المتوسط

obeikandi.com

تناولنا في المجلد الاول من هذه الموسوعة الكلام في حضارة الشرق الادنى الى بزوغ النصرانية . فعلينا الآن ونحن نتعرض لدراسة الغرب ، ان نعود القهقري قليلا الى الوراء ، ما يقرب من ألف سنة .

تاريخ المدينت وتوقيتها التاريخي التوقيت الزمني هو قوام التاريخ وهيكله . ولذا كان من اولى واجبات المؤلف ان يراعي أحكام هذا التوقيت ويأخذ باصوله المرعية . إلا ان التاريخ سلسلة متلاحقة الحلقات ، قوامها ترابط الوقائع والمجريات على اختلاف انواعها . فالقضايا التي يثيرها ، تنوء عن الحلول المرتجلة . فاذا كانت معرفة الاشياء من الامور التي لا بد منها ، فتفهم الوقائع ، وفحصها ، وتحليلها ، اجدى للمرء وادعى . والحال ، ان تفهم الحضارة واكتناه جوهرها لا يستدعي الوقوف على المدينت التي عاصرتها الا بنسبة ما كان لها من اثر بارز في هذه الحضارة . هنالك شعوب ينتظمها مدى جغرافي واحد ، الا انه قد لا يقوم بينها علائق وصلات ، وان قام شيء من هذا فمن ذلك النوع السطحي . وهذه المؤثرات قد لا يكون لها من الشأن الا بمقدار ما هي ذات اتجاه معين . هنالك مدينت معطاء ، تعطي الغير ، الكثير من ذاتها او من ذات يدها ولكن قلما تأخذ هي منه او تقبس عنه . ذلك هو في الواقع حال المدينت القديمة التي قامت بالنسبة للاحقة منها ، بدور المهدب او المربي . وهكذا أليف الناس النظر اليها وذلك لما لها من الاعراف والتقاليد التي يقدسها المريدون والأتباع . وهذان المدلولان اللذان لا بد من ان يتوقرا معاً ، هما شديدا الاتصال بعضها ببعض ، الا ان ترابطها المنطقي المكين لا يقوى على الثبات والاستمرار اذا ما انفصل احدهما عن الآخر .

استمرار مدينت الشرق الادنى هذا هو بالفعل وضع مدينت الشرق الادنى الغابرة بالنسبة للغرب ، اذ اننا نشاهد بعض هذه المدينت قائماً قبل عام ٣٠٠٠ ، وليس في غربي البحر المتوسط كله ما يمكن مقارنته بها ، ولو من بعيد . وهذه المدينت تستمر اجيالاً متطاولة ، متعاقبة ، حية ناشطة ، دون ان تجدد من شبابها الا ما ندر ، لا تشعر او قلما تشعر بالقوى الجديدة والمؤثرات المطلة من البلدان المجاورة حتى في حال بسط سيطرتها عليها ، فكيف بها تتفتح لمؤثرات بعيدة تعمل بالواسطة ؟ اما مدينت الشرق الادنى التي هي احدث عهداً مما سبقها على رقعة الشرق عامة ، فهي لا تقبس ولا تأخذ الا مما تقدمها من المدينت الغابرة . فليس في الغرب المتأخر في نظرها ما يدعو للقبس والتقليد .

فالمدينة اليونانية بنوع خاص ، لا ترى في الاقطار الواقعة منها الى الغرب ، سوى اراض

تصلح للاستعمار والاستثمار ، تقع عليها كلما سنحت منها الظروف ومكنت لها صروف الدهر ، فترسل إليها الجوالي في اثر الجوالي بالعدد الكافي ، والاقتنعت منها باستغلالها تجاريا بالحصول على محاصيل الارض فيها ، او يجعلها سوقاً تتفق فيها مصنوعات وما تحملها اليها من سلع وخرصاوات . وما عدا ذلك ، فلا ترى في هذه الاقطار شيئاً يستحق الاهتمام له او المحافظة عليه ، فهي بالفعل لا تأخذ شيئاً منها . فهذا الشرق المترامي الاطراف ، المتعدد الثروات ، الحير للعقول بما بلغت اليه حضاراته من الرفاه والنعمى ، الآخذ بمجامع القلوب بما حقق من إنجازات جبارة ، والمسيطر على العقول بما بلغت فيه الاديان من العقائد ومناسك العبادة والاحتفالات السامية ، والذي يفرض الاحترام لشدة اطلاعه على اسرار الطبيعة ومعمايتها ، هذا الشرق ، عرف منذ عهد بعيد ان يشبع ما في الاغريق من عطش الى المعرفة ، ومن توق شديد الى الاطلاع على الحضارات الاجنبية . فاي داع بعد هذا ، يحفزهم لعمرى ، على الاقتباس من قرطاجة مثلاً ، بينما تكون صور على قيد بضع مراحل منهم ؟ وتروي بعض المصادر التاريخية ان الاسكندر الكبير ، كان يحتر ، قبل وفاته بقليل ، فكرة القيام بجملعة واسعة تحمله ورجاله ، بحركة التفاف حول القارة الأفريقية او عن طريق مصر وقرطاجة ، الى اعمدة هرقل ( جبل طارق ) ليعود منها الى اليونان عبر شبه إيبيريا ( اسبانيا ) وغاليا ( فرنسا ) وإيطاليا . فلو صح الحلم واستطاع العاهل المقدوني تحقيق معالم هذه الصورة الجغرافية التي ارتسمت في ذهنه وطالما راودت خياله الجموح ، لعاد ذلك على الحضارة الهلينية بمخائص وميزات غير التي طبعتها فقردها . فلو كان هنالك امرؤ ما ، يستطيع الكشف عن افكار نجوءة يمكن الانتفاع بها في الغرب المحشوش ، لكان هو الاسكندر نفسه الذي عرف ان يكشف ما خفي من نجوءات الفكر والعلم والثقافة حينما اجتاحت جحافل بلاد ايران الشاسعة . الا ان خلفاءه الذين لم يكن بينهم من يدانيه ، من بعيد او قريب ، نبوغاً حربياً ولا ثقافياً ، قبعوا خاملين في الاراضي التي دوخها لهم ، واستكافوا الى ما قبضت لهم الاقدار من ملك وسلطان ، فاقترعت الحضارة الهلينية على التمكين للروابط التي اقامتها من قبل الحضارة الاغريقية في دورها البارزين من تاريخها القديم والكلاسيكي العتيق .

تأثير الشرق المتوسط على الغرب  
غير ان عدم الاخذ لا يمنع العطاء . وبالفعل هنالك عدد من مدنات الشرق الادنى امدت او ، بالاحرى ، شجعت المدنات الغربية الناشئة ، على الاخذ والقبس . فقد قامت في افريقيا تجاه المضيق الذي يفصل بين حوضي البحر المتوسط ، مدينة قرطاجة ، احدى انشاءات مدينة صور . والوجود الاغريقي الذي قام في الغرب ممثلاً بهذا العديد من المستعمرات اليونانية التي ازدهرت في جنوبي ايطاليا وجزيرة صقلية ، تبلور عن كتلة من الجوالي اليونانية زحرت حيوية ونشاطاً ، كما قدّم العديد من هذه الجوالي اليونانية في جنوبي غاليا وغربي اسبانيا وجنوبها . فالشرق السامي والايجي بعث الى الغرب مجاليات اخذت تنتظم على شاكلة المدن الام التي انشطرت عنها ، واقتصرت في تكيفها بالمحيط الجديد على الحد الادنى . الا ان هذه المجتمعات الناشئة في تربة جديدة وبيئات جديدة ، أثرت

عميقاً بمسلكها وتصرفها ، في غير جهد ولا عناء ، على الشعوب التي عاشت بينها ، وذلك بما كان للحضارة التي تحملها وتنعم بها من سمو وعلو شأن ، فنشرت حولها شيئاً من النظم السياسية والاقتصادية ، التي كانت تأخذها وتمتددها في عيشها ، كما نشرت الكثير من الاعتقادات والافكار والاذواق والاعراف التي قال بها سكان هذه المستعمرات وساروا عليها .

وقد حدث الى جانب هذا كله ، بفضل هذه الجوالي اليونانية ، تأثيرات تمت بالمداورة ، اي بمزل عن وجود ممثلي هذه المدنات ، اذ قام الاغريق والقرطاجيون بدور الساسرة . ويواسطتهم عرف سكان الغرب ، اذ ذلك ، وجهاً من وجوه الشرق اكثر انطواءً من المألوف ، واقل تعبيراً . وليس من الضروري القول مع القائلين ان الاتروسك جيل جاء اصلاً من آسيا الصغرى ، لندرك كيف ان الفن الاتروسكي ، كصنوه الفن الاغريقي القديم ، مر بدور « متمشوق » .

والحق يقال ان هذين العاملين ليسا على قدم واحد من المساواة . فالواحد منها يستخف بالفعل ، بالآخر ويزدرجه حتى في الحالات التي تقبس فيها مدنات الشرق الاوسط من الغرب . فجنودها لا تُعزق ولا توغل الا في تربة شرقية . فهي لا تختار نماذجها ولا تتخير عناصرها المقومة الا من الشرق . والامر الذي لا يمازى فيه قط ان بعض هذه المدنات الشرقية تتطور بخطى حثيثة قلما عرفت مدنات الغرب مثلها ، بعد ان عرفت كيف تفيد من ظروف اكثر ملاءمة ، ومن التقدم الذي حققته المدنات التي سبقتها الى الوجود في سلم الحضارة ومضمار الحياة . وهكذا قدمت هذه المدنات للعالم البعيد عنها نماذج يستلهمها ، وصوراً يترسما وينسج على منوالها عندما يستيقظ عنده الوعي وتستشرى فيه الحياة وتتدفع نحو الخلق والابداع . ففي الحين الذي افرغت فيه المدنية الهلينية ، في بوتقة واحدة ، الاختبارات التي جمعتها وألفت بين المثل التي اخذتها عن بلدان الشرق الادنى ، عمدت الى صهر هذا كله في لفة مثالية كان لها من شديد الوقع ما سحر مدنات الغرب الناشئة ، فراحت تتكيف به وتتأثر معه بعيداً ، حتى عندما رأت الحد من هذا التأثير ، والصمود له والوقوف في وجهه .

ومع ذلك إيانا والمغالاة . فالكلام عن شرق رائد وغرب سائر في ركابه ، وعن شرق مهذب معلّم ، وغرب متعلم له ومقتبس منه ، يذهب بالكثير من مفارقات المعنى ، والمدلول . فالغرب لن يفقد أصلته في هذا القبس ، بل الامر على عكس ذلك تماماً . فبعد ان دقت هذه الاصلة طويلاً واسترقت ، راحت هذه المدنات تعيد منها صلابة العود ، عندما دب اليها ريس الحياة وجاش فيها النشاط من جديد ، في مطلع العهد المسيحي ، الى ان قضت الاقدار على هذين العاملين بالانفصال والسير كل منهما في اتجاه مستقل معاكس . فالى هذا التاريخ كانت حركة القبس ناشطة باستمرار ، ولا سيما في الحقل الثقافي . ففي هذه الملاحظة كفاية لتبرير الفارق الزمني البدائي بين المجلد الاول والثاني من مجلدات هذه الموسوعة التاريخية . فقيل قيام الامبراطورية الرومانية ، كانت مدنات الشرق الادنى ، تكفي نفسها بنفسها ، وتتعرف فيما بينها وتتفاهم

قبل ان تتعرف الى مدنيات الغرب ، الا ان العكس لا يصح مطلقاً . فعبثاً نحاول فهم مدنيات الغرب ما لم ندرس مدنيات الشرق ونطلع عن كتب ، على تاريخها المجيد .

من المفارقات القائمة بين الشرق والغرب مفارقة لا ترتبط  
بشيء بالسابقة ، اذ ليس ما يرغم المجتمعات الغربية ولا ما  
يجبر المدنيات على التطور والسير بها نحو الوحدة . ففي  
واخر القرن الرابع ومطلع القرن الثالث قبل الميلاد، استطاع الاسكندر إنشاء وحدة سياسية ،  
وحدة سابقة لوانها في الشرق الادنى وانقسام مستمر في الغرب  
حافظ عليها خلفاؤه من بعده ، تألفت مقوماتها من هذه الاقطار التي لعبت شعوبها ، بصورة  
مباشرة ، فعالة ، دروراً بارزاً - وليس عارضاً - في تاريخ الشرق الادنى . وفي ظل هذه الوحدة  
السياسية برزت مدنية موحدة هيمنت على الشرق بكامله وطبعته بطابعها . فالشرق  
الكلاسيكي ، لم يعد مجرد صيغة او صورة من خلق المعلمين ، متقطع الاوصال الجغرافية . فقد  
اصبح هذا الشرق الواحد حقيقة واقعية ، حية ، نابضة - لها ككل كائن حي ، شوائبها - كما  
لكل مجتمع بشري قائم ، نواقصه . ولهذه الوحدة المتحيزة ، من الكلمات ومن الملء ، ما يتضائل  
حيالها - كل ما قام او عرف من نظائرها في التاريخ ، من قبل .

والحال ، فقد شهد الغرب ، في هذه الحقبة قيام مدنيات لا يمكن تجاهلها ، او التغاضي عنها .  
مع ان بعضها شاخ واندثر ، الا ان القوى المبدعة في هذا الغرب لم تنضب يوماً ولم تجف ،  
ولم تصب بالمعقم او التلحط . فاذا كانت حضارة الاتروسك الزاهرة ، قد غلتفها التاريخ  
ولفها بقمط النسيان ، مع ان عهدها لا يزال في الجواطر طرياً ، وفي مرأى العين ، فدنية  
قرطاجة هي الاخرى ، في أبتان زهوها وازدهارها ، وروما بدورها ، قطعت ، في هذا السبيل  
شوطاً بعيداً ، بينما يؤلف الغاليون ، من ناحيتهم ، قوة مادية هائلة بالرغم مما يعتمورها من قلة  
التنظيم ، بعثت الفرع والرعب ببطشها وبأسها . وليس ما يحول دون بلوغها يوماً من الايام  
التنظيم المرئى ، فتصبح إذ ذاك ، بالفعل ، بعبءاً يخشى شره . ففي الوقت الذي تمت فيه وحدة  
الشرق الادنى ، نرى الغرب شتيتاً ، متقطع الاوصال ، موزعاً بين مدنيات متباينة ، تفاوتت  
درجة تطورها ، واختلفت حيويتها باختلاف منطلقها عبر الزمن . فوضع الغرب آنذاك ، شبيه  
من جميع الوجوه ، بالوضع الذي كان عليه عالم شرقي البحر المتوسط ، قبل ذلك بنحو ستة او  
سبعة قرون ، مع انه ليس وراء ماضي الغرب الذي غبر وانقضى ما يمكن مقارنته ، من قريب  
او من بعيد ، بهذه المدنيات التي زهت وازدهرت في مصر ، وبلاد ما بين النهرين ، وحوض بحر  
إيجيه ، وما بلغته من تفوق عظيم .

ومع هذا ، وبالرغم من هذا ، فالمستقبل يفتقر عن بسمة عريضة للغرب ،  
اذ ان الحصيلة الكبرى التي عادت بها الحقبة التاريخية التي ينتظمها القسم  
الاول من هذا المجلد ، هي إعداد وحدة أشمل واوسع ، بالرغم من عدم

وحدة البحر المتوسط  
لحساب روما

دخول بلاد ما بين النهرين وايران فيها . إلا انها لعمرى ، وحدة سياسية لا غير . الا ان الوحدة المدنية او الحضارية لن تتم بالسرعة ذاتها مع ان عوامل اليسر لا تنقصها . ولا بد ، والحالة هذه من حدوث واحدة من هاتين الوحدتين ، فيتاح للأخرى ان تخلق لنفسها الأطر والملاكات التي لا بدّ منها للتطور والتقدم . فالفتح المظفر المبين الذي حققه الاسكندر من قبل ، مهّد لطلوع المدنية الهلينية . أما الفتح الاكبر الذي قامت به روما فهو الذي يمكن من تحقيق الوحدة القوية التي عرفتها الامبراطورية الرومانية في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد .

علينا أن نقول بالحتمية التاريخية ، هنا ، الى الحسد الأبعد ، الى ما وراء الحدود التي يبلغ اليها منطق المؤرخ ، فنقرر ان الغرب كُتِبَ له لعب هذا الدور ، وقدّر له السير في هذا الاتجاه . ومصير كهذا ، هو من فعل عناصر بشرية ، مختلفة العروق ، بعضها شرقي الاصل والنشأة ، كقرطاجة مثلا . والغرب في هذا السير المقدور غير مدين لأية هبة أو نعمة مجانية من الطبيعة ، وذلك بما ركز فيه من غرائز وخصائص مفرّدة . قد يرد بعضهم بروز الغرب ومجلبه وتساميه الى ما فيه من قوى وقدرات ناشطة ، بينما أخذ الشرق يعانى أوصاب الشيخوخة . انها لعمرى ، نظرة فاسدة لنشأة الشعوب يناهضها حيناً مائة دليل ، ويجرحها احيانا ألف دليل ودليل . ولعل أقربها طراً على الاطلاق الى الصواب ، حكاية الفتح الروماني . فمن أَلِف هذه الحكاية الى يائها ، ومن بابها الى محرابها ، للمفاجأة ولغير المتوقع ، دور حاسم . صحيح ان المفاجيء والطارىء وما ليس في الحسبان ، عنصر ملازم لواقع الحرب وللأحلاف العسكرية والسياسية . فاذا ما استعرضنا التفاصيل ونظرنا ملياً في ماجريات التاريخ ، وجدنا ان أكثر من حلف واحد ، وان أكثر من موقعة حربية واحدة ، كان مصيرهما في كف عفريت او في ضمير القدر المجهول . هنالك أمور تصدم منطق موقعة او معركة حربية صدماً عنيفاً . فبينما القدر المجهول يكتنف وضعاً حروبياً او ظرفاً سياسياً ، ترى الدولة نفسها مرغمة على التدخل عسكرياً في اليونان مثلا أو في آسيا الصغرى ، قبل ان تظهر نتائج الاعمال الحربية التي تنهض بها ضد قبائل اسبانيا والليغوريين الاشداء البأس ، فتنشئ روما ولاية لها من غاليا الجنوبية تشد بها بين اوصال ولاياتها في ايطاليا وبين الفتوحات التي دوختها جيوشها المظفرة في اسبانيا ، من نحو قرن ونصف ، وذلك بعد عدة سنين من انشاء ولاية مقدونيا وآسيا الصغرى . وفي سياسة روما ، الداخلية منها والخارجية ، على السواء ، أكثر من مثل نظيره لك ، يريك كيف ان كثيراً من النتائج التي امكن لروما اعتبارها نهائية ، كادت تصبح موضوع شك وتردد ، كما كانت من شأنها ان تجعل مستقبل البلاد كله في خطر ماحق . بعد هذا ، يصح ان نتساءل : هل كانت الوحدة الرومانية لنتم ؟ ، وبمثل هذه السرعة ؟ ، وعلى مثل هذا النطاق الواسع ؟ ، ولحساب روما بالذات ؟ قد يكون مجازفاً مغروراً من يجيب بالاجاب عن هذه الاسئلة المخرجة .

فالقوى والعوامل الخفية التي تتحكم بمصائر الدول والشعوب ، هي التي جاءت بالجواب

القاطع الجازم ، فقدمت لنا صورة لا شبيه لها ولا نظير ، من الرقي والتطور الذي بلغته الانسانية في عهد روما ، كل ذلك له من النتائج العظيمة الضخمة ما لم يسبق للتاريخ ان سجل مثلها او عرف ما يضاهاها .

علينا ان نستعرض تباعاً ، بعد ان عرفنا العناصر الشرقية التي لعبت هنا دورها البارز في هذا المصير ، والعناصر الغربية التي شاركت فيه ، اقوام الاتروسك الذين افاضوا على ايطاليا بمدينة سطع نجمها عالياً ، وقرطاجة ، هذه المدينة الشرقية النشأة التي انشأها الاستعمار الفينقي في الغرب ، والغالين الذين هدد تدويخهم بالقضاء على معالم روما الناشئة ، واخيراً روما التي ارسدت قواعد امبراطورتها على حوض البحر الابيض المتوسط .

